سردية الحكي الصوفي

عدنان رحمن حسان خريبط

كلية الآداب / جامعة القادسية

adnan.hassan@qu.edu.iq

الخلاصة :

ينطلق البحث من تساؤل هامّ حول سردية الحكي الصوفي ، ومدى تفاوت نصوصه ، أو تماشيها مع أسس النظرية السردية والحدود الاصطلاحية التي تمكّننا من تحليل السرد، والوقوف على خصوصيته ، والأشكال التي يعتمدها في صياغته ، وعلى الرغم من اتساع حلقة البحث وصعوبة التقييم – بوصف أن هذا النوع من السرد العربي يتضمن غايات وإشارات متعددة ، قد تنحاز الى الفكرة الصوفية أكثر من توافقها والقاعدة السردية – إلا أن البحث شخّص أكثر من موضع يُضعف السردية أو يلغيها ، وترك المجال للدراسات اللاحقة لا سيما رصد تحولات النص السردي الواحد عبر الأزمنة لدى من ألّف في النثر الصوفي .

فكان مما لوحظ في قسم من السرد الصوفي أيضا ، وشكّل ظاهرة بارزة عدم فاعلية الزمن والمكان ، وتعزيز سلطة السارد والمؤلف بإيراد تدخلات وتعليقات لا يحتاجها السياق السردي ، وغير ذلك مما أُثبت في صفحات البحث.

الكلمات المفتاحية : السردية، الحكي الصوفي.

Narrative of Sophist Narration

Dr. Adnan Rahman Hassan

Abstract:

The research stems from an important question about the narrative of Sufi narration, and the extent to which its texts differ, or their compatibility with the foundations of narrative theory and the terminological boundaries that enable us to analyze the narrative, and stand on its specificity, and the forms it adopts in its formulation, despite the breadth of the research circle and the difficulty of evaluation - describing that this The type of Arabic narration includes multiple goals and references, which may favor the Sufi idea more than its compatibility with the narrative base - however, the research identified more than one place that weakened or nullified the narrative, and left the field for subsequent studies, especially monitoring the shifts of the single narrative text through the times of those who composed in prose. mystic.

It was also observed in a section of the Sufi narrative, and it constituted a prominent phenomenon, the ineffectiveness of time and place, and the strengthening of the authority of the narrator and the author by introducing interventions and comments that are not needed by the narrative context, and other things that have been proven in the research pages

Keywords: Narrative, Sophist Narration.

سردية الحكي الصوفي

ينطلق البحث من فرضية أن السرديات الصوفية ليست على مرتبة واحدة من جهة القيمة السردية التي تجعل من تشكيل لغوي سردا تنظمه أسس وقواعد ،لذا سيتم فحص النصوص وتقصي رتبها والوقوف على ما ينفي تلك فرضية أو يثبتها، مع الأخذ بالحسبان وجود تسلسل هرمي يبدأ بما نصفه بالسردية ، ثم الأقل سردية ، ثم اللاسرد .

فإذا كان السرد ابتداءً (هو وسيلة اتصال تعرض تتابع أحداث تسببت فيها أو جربتها الشخصيات)[١]،أحداث فعلية أو افتراضية ، متسلسة زمنيا[٢] ، فاللاسرد والأقل سردية انطلاقا من هذه الحدود يقف على الكفة الأخرى المضادة لجزئيات ما أُثبت من مصطلح السرد ، مع الإبقاء على بعض العناصر السردية القارة في كل عملية سرد ، من مثل الشخصية والحدث في جوهرهما لا في تقنية توظيفهما ،لذا سيلمس من ما يخرج على السردية التخلي عن التتابع الحدثي وعن التسلسل الزمني وصولا الى التشتيت ، فضلا عن تدخل المؤلف واقحامه نفسه في وصف الحدث أو توجيهه ، وغير ذلك من التقنيات التي سنتناولها في فقار البحث التالية .

وبطبيعة الحال لا يوجد نص (سردي تخييلي) يتصف أو يخلص بأنه لا سردي بحت ، بل النصوص تتفاوت في تحطيم قواعد السرد ، وبذلك يتشكل سُلّم السردية أو مراتبها ، وتنشأ مسافات مختلفة بين القطبين المتضادين ، أو بين ما هو سردي وأكثر سردية .

ومن هنا عُرّف اللاسرد (antinarrative) بأنه (نص قولي أو لا قولي ، يتبني سمات السرد ، ولكنه يخترق بانتظام منطق السرد وتقاليده)[٣] ، فالتيار الابداعي الذي تبناه يرفض منهاج الكتابة التقليدية التي تعتمد على تصورات كالخطية والمنطقية والتسلسل وتحقيق الاستمرارية والانسجام ، إذ يعد ذلك نوعا من التزييف والقسر الذي تمارسه البنى التنظيمية في المجتمع على اللغة والادراك الفني، لذا لجأ هذا التيار الى اعتماد أفكار أخرى كاللاخطية واللاانسجامية واللابنائية ، كأساس لمبادئ كتابية وفنية تقاوم البنائية والسردية مثل عشوائية التركيب ومبدأ الصدفة والتركيز على البعد المادي للغة [٤].

إن إدراك ثنائية السرد / اللاسرد يكشف المراتب التي تتصف بها النصوص وصولا الى أعلى صفة لها ، لاسيما تلك التي تقع تحت سمة أجناسية سردية ، وعلى الرغم من أن السردية غالبا ما تكون أكثر صعوبة على التحديد والوصف والتقييم[٥] ، إلّا أن هناك اتفاقا واسعا حول حقيقة أن بعض السرود المختلفة تمتلك درجات

مختلفة من السردية ، فبعضها أكثر سردا من غيرها ، لذا يجب أن تكون السردية مرتبطة باستغلال وفهم الأشكال التي تميز السرد كنقيض للاسرد[٦] .

وينبغي الإشارة الى أن لا وجود للاسردي إلّا في السردي ، فالأول يعتمد على الأخير في تحقيق وجوده ، حتى وإن كان ذلك السردي مفترَضا ،ما دام هو الأصل الذي تنظمه قواعد وقوانين قارة ولو لحقبة زمنية معينة ، وهكذا يستغل اللاسردي المساحة التي يخرج بها على تلك القواعد لغرض تحقيق غايات أدبية وغير أدبية .

لا شك أن بين السردي واللاسردي رتبة وسطى يمكن أن تقرب المسافة بينهما ، وهي أيضا غير مستقلة ، كونها تشترك أو تلتزم بالقاعدة السردية أو النظام السردي بنسبة ، وتخالفه بنسبة أخرى من دون أن تصل الى ميدان اللاسرد ، لذلك لابد عند الوقوف على تجليات ما يمكن أن نعده أقل سردية الى الإشارة الى ما هو أعلى وأدنى ، وستكون مظاهر السردية بطبيعة الحال متضمنة ، فهي ليست محل البحث، بل نحن هنا نقف عند طرفين أو عتبتين من السُّلّم السردي .

فإذا كان المتن المستهدف يُنبئ أو يدل ابتداءً على انتمائه الى الحقل السردي ، خبرا كان أم حكاية ، فذا يوجب البحث في مظاهر ضعف السردية أو انعدامها ، وليس ما يعزز وجودها ، ورغم صعوبة تقصي مصاديق المصطلح ،وامتداد حدوده وصدوره عن المتون السردية الحديثة (الروائية) ، فإن البحث يبقى محاولة لتسليط الضوء على جزء من التراث العربي الصوفي ، له خصوصية اجتماعية وثقافية .

إن المرصود من الصفة (السردية) ضعفا أو انعداما في النصوص التراثية لا سيما الصوفية منها ، لا يعطي الفائدة نفسها التي يتيحها (اللاسرد) في السرديات الحديثة ، لأنه في الأخيرة موظف بوعي وصادر عن الرغبة في تجديد أساليب السرد ، وتنويع طرقه بل الثورة عليه وتحطيمه ، وهذا قد يشمل النص كله ، أو أنه يحتل مساحة لغوية كبيرة ، لا تضاهيها ما وقفنا عليه في التراث الصوفي السردي ، الذي غالبا ما يكون المظهر فيه لا يتجاوز الجملة ،و ما فوقها من مقطع .

لذا سينتفع البحث من المصطلح الحديث ،ويحصر تطبيقاته بما يتلاءم مع النصوص القصيرة التي تمثلها المسرودات الصوفية ، والانتفاع أيضا من الإجراءات النظرية التي طبّقت المصطلح على مستوى التشكيل اللغوي القصير ، لاسيما عند الناقد (جيرالد برنس) .

لقد نُظر الى اللاسرد على أنه يعطي النص الحديث طاقة وحيوية وانتقال من وضع الى آخر دون سياق سردي ، ويمنح السارد التحرك بالحذف والاضافة وتغيير الشكل شرط المحافظة على هندسة المعنى الكلي[٧] .

والجدير بالذكر (أن القول : إن سردا ما يمتلك سردية أكثر من غيره، لا يعني بالضرورة أنه أفضل أو أسوأ، تعتمد السردية على المتلقي وكذلك على قيمتها)[٨]، وما دام نوع السرد في بحثنا هذا يدعو الى الأخذ بعين الاعتبار عدة مسائل ، فلا بد من النظر الى أنه قد يطوّع السرد لمصلحة الجمهور المستهدَف ،ومراعاة المتلقي أكثر من مراعاة قواعد الفن السردي ، كذلك يؤدي توجيه السرد لتلبية غاية إيديولوجية ملحة الى إغفال منطق السرد ، لكن هذا لا يمنع أن نشخص ما أدى الى خلق اضطراب في جزئيات البناء السردي .

من تلك الجزئيات :

١- تعويم الزمن والمكان

كل سرد يحتاج الى بنية زمنية ومكانية ، تنتظم مع بقية الوحدات والبنى في تشكيل وضبط الأجناس السردية، وغياب تلك البنية او اضطرابها المخل او ضعف تمثلها في النصوص ، يؤدي لا شك الى إضعاف السردية ، بل يهدد وجودها وصولا الى اللاسرد .

وعلى العكس من ذلك تزداد الأحداث سردية، إن كانت منظمة واضحة مصحوبة بالزمان والمكان ، بل إن الزمن الماضي أكثر سردية من المستقبل[٩] ، كون الماضي أكثر إيهاما بالواقع واستقلالا بالتحقق ، في حين أن المستقبل يحتاج الى إرجاء لتحقق الحدث ، ربما يتطلب زمنا طويلا ، أو أحداثا كثيرة تشغل حيزا يمكن أن يمتد الى نهاية المتن السردي .

وعلى كل حال سينظر الى تجليات العامل الزمني على وفق دوره في ترتيب الحدث بالنظر الى ميزة السابق واللاحق، أي رصد حركة المتن والمبنى بحسب اصطلاح الشكلانيين، ودوره في خلق إيهام بزمن الحدث الواقعي عن طريق توظيف الزمن الموضوعي الاصطلاحي .

وليس بمستنكر على السارد الصوفي أن يخلق لحكايته أو خبره زمنا غير خطي ،فيكون المبنى متحررا من قيد التتابع الزمني الذي يفترضه منطق التوالي ، وهذا الأمر أدخل بعملية الابداع السردي التخييلي .

وما دامت غايات المتصوفة في أغلب الأحيان في الاتكاء على الحكي تنحو منحى تعليميا وايديولوجيا ، فذا يجعلهم أقل اهتماما بمسألة فنية الصياغة السردية ، ولا يقتصر هذا الأمر على وحدة الزمن ، بل يلحظ في الوحدات الأخرى التي سيتطرق لها البحث .

إن النظر الى السرد الصوفي وذاك الكم الكبير من الحكايات والأخبار ، سيجد تمثلات الزمن وتقنياته ، سواء ما تعلق منه بالترتيب أو الحركة أو غير ذلك ، وهو أمر طبيعي ونحن هنا نرصد ما خرج منه على

الفرضية السردية ، أو ما شكل خصوصية مائزة مؤثرة في سردية النص خفضا أو رفعا ، علما أن هذه الجزئية من الزمن لا تتجرد عن الحدث ، بل هي متركبة فيه .

عندما نقول عن الزمن في سبيل المثال : (وصلتُ ليلة الجمعة في الساعة الثامنة مساءً من شهر محرم) ، فلابد أن يحتوي القول أو بالأحرى المحددات الزمنية على مؤشرات لها علاقة بالسرد اللاحق ، أو أن علاقتها يفكها المتلقي بالنظر الى الرصيد الثقافي الذي انطلق منه منشئ النص ، فضلا عما يثيره هذا الزمن الاصطلاحي من الوهم المرجعي ، أي أنه وسيلة دعم لعالم السرد وصدقيته الفنية .

فإذا كان الحدث يقتضي مصاحبة الزمن له ، زمن ينتظره المتلقي ليثق بالسارد وما ينقله ، فالتخلي عن ذلك ينسف تلك الثقة ويزعزع الميثاق السردي، وهذا ما سنجده في بعض النصوص السردية الصوفية ،فمثلا يروي أبو السعود عن إحدى الشخصيات قولها : (بعد كذا وكذا يوما يقع كذا وكذا ، وذكر أمراً يحدث فيها ، ثم غاب في الماء ، فلما انقضت خمسة عشر يوماً ، وقع ذلك الأمر على صورة ما ذكره ذلك الرجل لأبي السعود) [١٠] .

فالسارد هنا غيّب الحدث وزمنه قسرا ، فترك بذلك ثلمة في السرد على الرغم من احتياج المتلقي لمعرفته ، مما أدى الى إلغاء شرط السرد بوجود الحدث وزمنه ، إذ لا سرد من دون حدث ، ومثل ذلك لكن بحضور الحدث ما يرويه رجل واسطي قال : (أوغلنا في لجة البحر المحيط في طلب الصين ، فتهنا فلما كان وقت كذا وكذا عصفت الريح الشمالية ..) [١١] .

يبدو أن عدم ذكر المحددات الزمنية يرجع الى أن الحكاية لا تستهدف الزمن ، بل هو فرض ، علاقته بمجريات السرد علاقة فوقية ،وقد يرد بوصفه إشعارا بنقطة بدء لا غير، كقول السارد : (كنت ليلة من الليالي..) [١٢].

وقد يعمد السرد الى تعويم الزمن للانفكاك من التوثيق التأريخي الذي تتجنبه المسرودات الشفاهية ، رغم دعوى الصوفية بمرجعية سردهم ،فحتى إن تعلق الأمر بحدث تأريخي يقتضي التوثيق (كالخروج الى غزوة) ، من قبيل ما يُروى عن عبد الواحد بن زيد قوله : (بينما نحن ذات يوم في مجلسنا هذا ، قد تهيأنا للخروج الى الغزو ..) [١٣]، نجدهم يتخلون عن التحديد التأريخي .

يرجع ذلك الى افتراض السارد أن بينه وبين المسرود له ميثاقا سرديا يشتمل على التصديق والايمان ، ما دام التداول الصوفي الحكائي خاص بهذه الجماعة ، ومنحصر بمجالسها وعلاقات أفرادها فيما بينهم ، لكن ذاك غير مسوغ سرديا كونه يضعف السرد .

إن كان لابد للحدث من زمن ،فالحال نفسها بالنسبة للمكان ، فهما لا ينفكان ، فإذا ما حصل قطع في علائق الفعل والميدان الذي تتحقق فيه ،فذاك يعني إلغاء تصور حدوث الفعل ، بل (إن مقولات الفعل والفاعل والزمان لا يمكنها أن تتحرك إلا في المكان الذي يستوعبها ويؤطرها) [١٤] ، وهذا يعني ارتهان السردية بتوافر هذه الجزئية وتحققها .

وبالنظر على السرد الصوفي سنجد ظاهرة غياب محددات المكان ومعالمه بارزة ، بل منه ما جاء مجهولا ،مثلا يُروى عن ذي النون المصري أنه سأل عن جارية بعضِ المتعبدين (فقالوا: هي في الوادي الفلاني ، فذهب الى الوادي ..)[١٥].

ويروى ايضا أن إنسانا جاء الى محمد بن حسين البجلي وقال له : سُرق ثوري ، فقال له : إذهب الى المكان الفلاني تجد فيه شيخا يحرث ،وعندما وصل الى الشيخ قال له : إذهب الى المكان الفلاني تجد ثورك ..[١٦] .

إن المتلقي بحاجة الى معرفة المكان ، لأنه مرتبط بحدث رئيس ، وتعيينه يزيد انتماءه للفن السردي ، فهو مقصود للضرورة التي يستلزمها الحدث ، لكن نعته بـ (الفلاني) الذي عادة ما يشير الى شيء غير محدد ومتخيل غير واقعي ، يتعارض مع حاجة المتلقي والقائم بالحدث .

أما المكان غير المعين بشكل يوهم بالمرجعية، كقول السارد : (دخلت سوقا من الأسواق، فإذا أنا بجارية ينادى عليها ..)[١٧] ، فوارد بكثرة أيضا ، لأسباب نراها تتصل بالبنية الثقافية والشعبية التي انبثق منها السرد الصوفي ، وهي في الوقت نفسه تبتعد عن فرضيات السرد ، منها :

- إن الحدث ممكن أن يقع في أي مكان، فلا داعي لتحديده .
- غلبة الوظيفة على المكان ، أي أن السارد عادة ما يلجأ الى ما يوحي به المكان، وما يحفز على انبثاق فعل يقتضيه ذلك المكان ، فإذا كان (سوقا) مثلا ، فإنه لابد أن يشير الى عملية يمكن أن تمارس فيه ، وإذا ذكر واديا أو جبلا ، كانت شفرة المكان هذا تحيل الى ما تعارف عليه الصوفية من أنهم متفردون مستأنسون بالوحدة والعبادة.

فالمكان بهذه الصورة يحمل تحفيزا ذاتيا مرة ، وتحفيزا ثقافيا خاصا بالجماعة مرة أخرى ، ما دام يحمل مؤشرات يعمل المتلقي على الوقوف على إحالتها ودلالتها الخاصة .

٢-تداخل الأصوات ومجهولية صاحبها

كل سرد وراءه سارد يدير دفته ، ويضطلع بوظيفة ملزمة تكمن في سرد الأحداث وتوجيهها ، هذا السارد قد يكون مشاركا في تلك الأحداث بوصفه شخصية من شخصيات عالم السرد أو بطلا ، فيكون ظهوره في هذه الحال واجبا ومحدودا قاصرا أيضا ، وقد يكون غير مشارك ، بل يكتفي بالرصد والتعقب ، فنرى السرد يمر عن طريقه الى المسرود له ،هذا السارد قادر على الإحاطة بكل شيء ومعرفته تفوق المعرفة الإنسانية المحدودة ، ولذلك سمي بالسارد العليم .

هاتان الصورتان من صور السارد هما ما يوجد في السرد الصوفي ، وقد يتداخلان إذا كان هناك أكثر من مستوى ، بل قد يتحول السارد من مشارك الى عليم في الحكاية نفسها ، على الرغم من تضمنها مستوى واحدا .

لقد ورد السارد في السرد الصوفي مجهولا ، ولا يقصد من هذا السارد كلي المعرفة ،الذي يُستعمل بوصفه تقنية سردية متعارفة لا تؤثر في إضعاف سردية النصوص ، وإن كانت تشي بهيمنة السارد ، إنما (المجهولية) تقع من سارد مشارك في الأحداث (ذاتي القصة)- بحسب اصطلاح جينيت- إذا ما كان بطلها ، لذا يقتضي السياق السردي ظهوره ما دام له وجود وحدود ضمن المساحة النصية ، أي أن له كيانا سرديا يوجب أن يتحلى بتسمية ، أو أي تعريف آخر مرجعي أو يوهم بالمرجعية .

مثلا (حكى بعض مشايخنا عن شخص كان مصرا على المعاصي، ثم انتبه وتاب وحسنت توبته ، وصار له حال مع الله تعالى ، قال :عزمت أن أحج مع القافلة ، ونويت أن لا أسال أحدا شيئا ، وأكتفي بعلم الله تعالى بحالي ، قال :فبقيت أياما في الطريق ..) [١٨].

إن الراوي على المستوى الثاني حاز على تسمية (شخص) ، وهو بطبيعة الحال راو مشارك ، تلك التسمية لا تعيّن المسمى ، بل تجعل هذا الفاعل السردي (ساردا وبطلا) متحررا من القيد الزمني الذي يفرضه المتصوفة على أنفسهم بزعمهم واقعية حكيهم ، لذا سيختل الميثاق السردي بين الباث والمتلقي ، وتكون النتيجة سردية أقل.

ومثل ذلك ما ورد في الروض (عن بعضهم قال : دخلتُ البادية على نية السياحة ..)[١٩]، فالسارد هنا غير معروف على الرغم من وضوح صوته، ومشاركته بالحكاية التي ينقلها ، وقد يذكر المؤلف حكاية يتردد فيها بين ساردين في الوقت نفسه ، لأمر راجع الى ما تتصف به الحكاية من تداول شعبي ، لكن ذلك لا يمنع من أن نصفها بضعف السردية ، ما دام القائم بالحدث غير محدد ، فضلا عن أن (الحدث) لا يطلب إلا فاعلا واحدا

يكون مسؤولا عنه، على سبيل المثال ينقل النبهاني قوله: (ذُكر عن ابي حفص أو غيره ، أنه كان جالسا وحوله أصحابه ..) [٢٠].

ولا يُكتفى بمجهولية السارد في سياق يوجب معرفته ، بل وردت الشخصية أيضا مجهولة ، سواء أكانت بطلة أم ثانوية ، يُعزى ذلك الى البيئة الاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها السرد ، فنراه يتحرر من القيود ليسهل تلقيه لا وثاقته ، وليس الأمر هذا متعلقا بتقنية سردية كما نراه في أغلب شخصيات القصة القصيرة الحديثة ، بل هو ضعف الوعي بالأداة السردية التي تناسب المقام الايديولوجي الصوفي .

مثلا يروى أن بعض الملوك قال لشيخ : إما أن تظهر آية وإلا قتلت الفقراء..[٢١] ، أو قول آخر : (كان بخراسان شخص يكثر من ثلب الشيخ محي الدين بن عربي .. فقال الشيخ لشخص : ناولني الخنجر الذي من صفته كيت وكيت ..)[٢٢].

فإذا كان التشخيص في الحالة أعلاه يضعف السردية التي يتطلبها الحكي الصوفي ، فإن تغيير صيغة الخطاب يؤدي النتيجة نفسها ، لكن بمواضع مخصوصة ، ففي حكي الأقوال السارد حر في ترك الشخصية تتكلم بنفسها ، وهو ما يسمى بالخطاب المنقول ، أو التدخل في أقوالها وتحويلها بصياغته (تسريدها)، أي أنها تمر من خلاله ، وهو ما يعرف بالخطاب المسرّد ، لكن الجمع بين هذين الشكلين في الوقت نفسه ، وإقحام السارد نفسه في موضع يشير الى قول الشخصية وصوتها الواضح ، أي استعمال الخطاب المنقول ، يعد خللا في سياقات القول ومقاماته ، إذ يُنسب القول للشخصية ابتداءً ، لكن السارد يقحم صوته فيصبح الكلام هجينا مضطربا يتنازعه طرفان : الشخصية والسارد .

يروى عن منصور بن خلف المغربي قوله : كان رجلان اصطحبا على الإرادة برهة من الزمان، ثم افترقا مدة ، حتى خرج الأخير في غزوة يقاتل الروم ، فبرز من معسكر الروم رجل مقنّع يطلب المبارزة ، فخرج اليه الصوفي ، بعد أن قتل المقنعُ من معسكر المسلمين ثلاثة أبطال ، فعندما تطاردا سقط قناع الرومي، وإذا به صاحبه ، فقال له : إيش الخبر[٢٣] ؟

- فقال : إنه ارتد وخالط القوم، وولد له أولاد ،واجتمع له مال .
- فقال له : كنت تقرأ القران بقراءات كثيرة .
- فقال : لا أذكر منه حرفا [٢٤] .

إن استعمال السارد للفظة (قال) ، تدل بديهة على صوت القائل الذي سيليها صراحة ، فهو اشعار ببراءة السارد من القول وعدم تدخله فيه ، فالأصل أن يأتي بعد تلك اللفظة ما يتناسب مع صيغة المتكلم النحوية وما يخصها من ضمائر وأزمنة ، لذا ينبغي أن تكون المقولة في الحكاية بهذه الصيغة التي اختصرها بـ (إنني ارتددتُ وخالطت وولد واجتمع لي) ،لذلك افتقر الحوار الى تواتر زمنه وتفاعل طرفيه ، على الرغم من أن بدايته ونهايته كانت خالصة بصيغة الخطاب المنقول .

٣- تدخلات المؤلف

يتموضع المؤلف خارج إطار العملية السردية على وفق رؤية الدرس البنيوي ، ووجوده وجود تأريخي لا علاقة له بالعالم المتخيل الذي ابتكره ، وإن تماهى مع بطل يخلقه أو شخصية يبتدعها ورؤية يبثها على لسانيهما ، هذا بالنظر الى تأليف يتبنى عقدا إشهاريا موسوما (بالتخييل) ، غير ذلك يمكن أن يكون المؤلف بطلا أو ساردا ،أي أن له امتداد خارج النص وداخله ، لاسيما في فن السيرة الذاتية .

وما دامت النصوص السردية قيد البحث في مجملها نصوصا تخييلية ، فهذا يدعو الى رصد تدخلات المؤلف ، لكون هناك جزء من العملية التواصلية تقع بين المؤلف والقارئ ، يسمى هذا التواصل بالتواصل اللاتخييلي ،أو الحقيقي الذي يقع خارج النص[٢٥]، فإذا كانت علامات التواصل الخارجي وتشكيله اللغوي لا ينتمي للنص السردي ، فذاك يجعله مؤشرا على لا سرديته .

فمثلا يروى عن ابراهيم الخوّاص (قال : حججت سنة من السنين، فبينما أنا أمشي مع أصحابي ،إذ عارضني عارض في سري يقتضي الخلوة، وخروجا عن الطريق الجادة، فأخذت طريقا غير الطريق الذي عليه الناس.. فانتهيت الى برية خضراء، فيها من كل الثمرات والرياحين، ورأيت وسطها بحيرة ،فقلت كأنها الجنة ،وبقيت متعجبا ، فبينما أنا كذلك أتفكر إذا بنفر قد اقبلوا ، سيماهم سيما الآدميين.. فحفوا بي وسلموا علي ، فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته أين أنا وأنتم ؟ ثم وقع بخاطري بعد سؤالي لهم أنهم من الجن ..قلت : وكم بيننا وبين الموضع الذي تركت فيه أصحابي .. قال: بينك وبين القوم الذين فارقتهم مسيرة كذا وكذا من شهر، أو قال : كذا وكذا من سنة ، والله أعلم أيهما ذكر ابراهيم ..) [٢٦] .

فمن الواضح أن التردد الحاصل في تعيين المدة الزمنية ناجم عن تدخل المؤلف الذي يسرد بطريقته ، لا تدخل سارد الحكاية (ابراهيم الخوّاص) ، فالأول الذي يدعي الاحتجاب ويلتزم بأمانة السرد، كشف عن نفسه على الرغم من أن وظيفة السرد ملقاة على عاتق ابراهيم ، إذ لا فائدة من اقحام هذا التعليق وهو يتنافى مع

ادعاء الأمانة ، كون ما أتى لإثباته غير محدد ولا معلوم ، إذ قال : (كذا وكذا) المحيلة الى زمن مطلق غير محدد .

يأتي بعد ذلك تدخل آخر من المؤلف في الحكاية نفسها : (قلنا للشاب فما معنى الإنابة وما معنى التسليم ، وما معنى هذا العذاب ،فقال : الإنابة أن يرجع بك منك إليه ، قلت ولم يذكر التسليم في الأصل الذي نقلت منه، ولعله أن تسلم نفسك له وتعلم أنه أولى بك منك) [٢٧]، فقوله (قلت ولم يذكر التسليم .. أولى بك منك) يزيح ستار احتجاب المؤلف ، فيتجلى بكل إنسانيته وتأريخيته ، فقد أتم ما رآه ثغرة في السرد ومسكوتا عنه بتعليق على المتن ، لكنه ليس جزءا منه .

وقد ترد تدخلات المؤلف لغاية توضيحية موجهة للمعنى ، مثلا يحكى (أن بعضهم رأى النوري يمد يده ويسأل الناس ، قال : فاستعظمت ذلك منه واستقبحته له ، فأتيت الجنيد فأخبرته ، فقال لي : لا يعظم هذا عليك ،فان النوري لم يسأل الناس إلّا ليعطيهم سؤلهم في الآخرة من حيث لا يضره ، وقول الجنيد : ليعطيهم كقول بعضهم : اليد العليا يد الآخذ ، لأنه يعطي الثواب ، قال ثم قال الجنيد : هات الميزان ..) [٢٨].

فقوله :(وقول الجنيد ليعطيهم كقول بعضهم ... ليعطي الثواب) تدخل من المؤلف داعم لتسويغ الفعل ، ولا يمكن عد القول هذا لتلك الشخصية التي رأت النوري ، كون السياق السردي يشير الى تساؤل الشخصية وجهلها بغايات الفعل الذي أداه النوري بسؤاله الناس .

وقد يورد السارد تكرارا فائضا ، لاسيما بعد إن علم المسرود له أو القارئ من هو المتكلم ، يروي ذي النون المصري أنه (قال : وصف لي رجل من السادة في اليمن ، قد برز على الخائفين ، وسما على المجتهدين بسيما بين الناس معروف ،وباللب والحكمة والتواضع والخشوع موصوف ،قال : فخرجت حاجّا الى البيت الحرام ..)[٢٩].

إن (قال) الثانية فائض من السارد الثاني الذي هو المؤلف، لا يحتاجه سياق القول ، ولا يميز الصوت السردي ، وإن كانت محاولةً منه للإمساك بالمسرود له، وإبعاد تماهي السارد الثاني مع الأول (ذي النون) .

وسواء أكانت تعليقات المؤلف وتدخلاته في سير الأحداث، ناتجة عن الرغبة في توجيه المعنى وتفسيره، أو الإيهام بوثاقة السارد، أو سد ثغرة سردية تثير تساؤل المتلقي ، فكل ذلك تطفّل على السرد يضعفه إذا ما كان يلغيه .

٤- رواسب الشفاهية

تتصف المسرودات الصوفية ببعض المظاهر الشفاهية ، فهناك علامات تدل على تناقلها في الوسط الشعبي قبل أن تثبّت في كتاب وتستقر بنيتها اللغوية ، بل منها ما دوّن وهو مرتدٍ رداء الطريقة الشفاهية .

وليس كل مظهر شفاهي يعود على السرد بإضعاف سرديته وانتهاك قوانينه ، لأن السرد واحد سواء أكان مسموعا متغيرا أم مقروءا ثابتا، لذلك سنقف على بعض الحالات التي نرى أنها تخلخل سردية النصوص .

ومثل تلك الشفاهية قضية السند ،الذي تنحصر الوظيفة فيه كونه يمنح القدسية والمصداقية ، علما أن صورته عند الصوفية ، لا تتطابق مع قواعد وأصول هذا العلم الناشئ عن الحديث النبوي ،وهذا أمر كثيرا ما أشير له لدى دارسي المتون الصوفية السردية .

ومن البين أن التأليف الصوفي أخذ يقلل من أهمية هذه الطريقة الشفاهية ، فنراه يحذف الأسانيد ، فيثبت الخبر أو الحكاية لراويها الأول فحسب ، أما من الناحية السردية، فنرى أن لا نفع سردياً في سلسلة الرواة بعد راوي الأحداث الأول ، ما دام ليس هناك أي تغيير في مجريات السرد وأحوال الرواة .

ومن مظاهر الشفاهية الأخرى تردد السارد وذكره لقولين في آن واحد ، مثلا يروى أن مالك بن دينار قد احترق منزله، فخرج وهو يقول : (نجا المخفّون نجا المخفون ، أو قال : فاز المخفون نحن وأنتم ، أو قال : منا ومنكم يوم القيامة) [٣٠] .

فمن البدهي أن القائل (مالك) له مقالة واحدة ، لكن الاختلاف في نقل القول ناجم عن الرواة (المشافهة)، جلبه المؤلف بإشكاليته وتعدد تداوله الى المتن من دون النظر الى الأصل الذي لا يحتمل التعدد .

ونظير ذلك أيضا قول أبي عامر البصري لهاورن الرشيد في إحدى الحكايات :(يا أمير المؤمنين معي وديعة من غلام غريب ، وهو يقول لك : لا تموتن على غفلتك هذه ، أو قال : على غرتك هذه ..)[٣١] ، فعلى الرغم من أن بدائل الجملة الأولى التي أرودها السارد تعطي المعنى نفسه ، إلا أنه ذكرها تأثرا منه بتلك الطريقة في السرد ، ولا علاقة للأمانة في النقل بها ، ويبدو أن وراء القول الثاني تدخّلا للمؤلف لا للبصري .

ومن سمات الشفاهية أيضا ترك التحديد دلالة على أهمية المضامين ، يروي السهروردي قوله : (سمعتُ أن الشيخ عبد القادر رحمه الله بعث الى شخص وقال : لفلان عندك طعام وذهب ، إئتني من ذلك بكذا ذهبا وكذا طعاما ..) [٣٢].

تشير (سمعت) الى التناقل الشفاهي ، ويعزز هذه الشفاهية خلو الحدث السردي من الوثاقة أو الإيهام بها، فهناك (شخص ، فلان) غير مسميين ، أي أنهما عنصران غير تأريخيين ،لا أهمية لهما غير أداء المضمون، أو تأدية فعل منوط بهما فحسب ،والفعل بطبيعة الحال الصوفية أهم منهما وأبلغ غاية .

إن التشكيل السردي الكلي في مثل هذه الحكاية ، لا يمكّن المتلقي من الاحاطة ولو بشيء قليل بجوانب الشخصية النفسية أو الاجتماعية أو غير ذلك ، يعزز عدم التحديد الواقع على الشخصيات ما عبّر عنه بـ (كذا) للذهب والطعام ، اذ تُرك المقدار كونه لا يشكل مقصدا ، في حين أن السردية تهتم بهذه العناصر كلها ، وتمنحها مقدارا من الوضوح والتعيين لتكسب ثقة المتلقي الناشئة عن الاقتراب من الواقع .

وشبيه المثال أعلاه لكن مع فرق في المظهر الشفاهي ، ما يرويه النوري قال : (سمعت أبا الحسن الفارسي يقول : قال لي أبو الحسن المزين : دخلت البادية وحدي على التجريد ، فلما بلغت العمق قعدت على شفير البركة ، فحدثتني نفسي بقطعها البادية على التجريد، ودخلها شيء من العجب ، فإذا أنا بالكتاني أو غيره ، الشك مني ، من وراء البركة ، فناداني : يا حجام كم تحدثك نفسك بالأباطيل ، ويُروى أنه قال : يا حجام احفظ قلبك ولا تحدّث نفسك بالأباطيل) [٣٣].

تعدد الرواية هذا غير مجد سرديا ،فهو لم يضف شيئا على المعنى ولم يشكل حافزا لفعل ولا منطلقا لتحوّل في بنية الحكاية ،بل هو اختلاف في الصياغة اللغوية فحسب .

٥- الحذف وغياب السببية والترابط

يتحقق السرد بوجود أحداث متتابعة مربوطة بوثاق زمني معين ، خلاف ذلك، أي بغياب سلسلة الأحداث ،لا يمكن أن نسميه سردا ،كقولنا : وقع صراع أو كانت رحلة جميلة[٣٤]، فهذا القول مفتقر الى الأحداث التي شكلت الصراع أو فصّلت سبل التنقل وما كان في الرحلة ، وكلاهما يحتاج الى حكي الأقوال والأفعال ،كما أن المتلقي أيضا به حاجة الى معرفة تفاصيل ما وقع .

بالنظر الى المتون الصوفية نجد بعض ملامح اللاسرد أو السرد المغيب ، من قبيل ما رواه أبو علي الدقاق قال : لما سُعي بالصوفية أمر الخليفة بضرب أعناقهم ، تقدم النوري مؤثرا على أصحابه حياة ساعة ، فتعجب السياف وأخبر الخليفة، فردَّهم الى القاضي ليتعرف حالهم ، فألقى القاضي على أبي الحسن النوري مسائل فقهية، فأجابه على الكل ، ثم قال : إن لله عبادا إذا قاموا قاموا لله ، وإذا نطقوا نطقوا بالله ، وسرد ألفاظا أبكي بها القاضي .. [٣٥].

الملاحظ من السرد أعلاه أن هناك حوارا مغيَّبا مفترَضا ، يأخذ شكل سؤال وجواب (مسائل فقهية) ، وهو في مجمله يحقق وظيفة اختبار للبطل الصوفي ، هذه الوظيفة لها أهمية بالغة ورئيسة في حبكة الحكاية ،بل يتوقف عليها الترابط السببي بين هيكل الحكاية من بداية ووسط ونهاية ، لكن السارد على الرغم من الدور القيم لهذه الجزئية من السرد نراه تركها مجهولة ،واكتفى بجعل الإشارة لها خطابا مسرّدا ، مختزلا الأمر بلفظتين (ألقى مسائل فأجاب).

ثم يلجأ السارد مرة أخرى الى اللاسرد بقوله: (سرد ألفاظا) ، فقد غيّب أيضا وصفا أو أقوالا محتملة ، إذ لا يُعلم محتوى ذلك السرد ، ولم يظهر من أثره إلا تسبيبه بكاء القاضي والعفو عن الصوفية ، وهذا يدل على فاعلية السرد المحذوف ومركزيته في خلق تحولات الحكاية ، لكن السارد غيّبه تعجلا منه ، أو تأكيدا لهيمنته ، أو تهربا من صياغته التي تثير تساؤلات الصدقية ،وهكذا يفتقر النص الى كشف ما حدث بالتفاصيل التي تغني المتلقي وتنسجم مع مقتضيات السرد .

وقد ينوب لفظ (كذا) مناب المحذوف ، لكنه يبقى مجهولا وقاصرا ومخالفا لقواعد السرد ، مثل ما ورد في حكاية مكين الدين الاسمر قال : (كان في الإسكندرية بعض الصالحين صحب الشيخ أبي الحسن، ثم كثُر عليه ما سمعه منه من العلوم الجليلة والمخرقات ، فلم يسع ذلك عقله ، فانقطع عن الشيخ أبي الحسن، فإذا ليلة من الليالي وأنا أسمع أن فلانا دعانا في هذا الوقت بست دعوات، فإذا أراد أن يستجاب له، فليولِ الشيخ أبا الحسن الشاذلي ، دعانا بكذا دعانا بكذا ، حتى عينت لي الست دعوات ... ثم أصبحت فذهبت الى ذلك الرجل، فقلت له: دعوت الله البارحة بست دعوات ، بكذا دعوته بكذا ، الى أن أعددت له الست دعوات ، فقال: نعم ..)[٣٦] .

فإذا كان الحذف غير المسوّغ يتنافى مع سردية النص ، فغياب السببية أيضا يضعفها ، إذ لابد من ترابط بين الوحدات السردية[٣٧]،ما دامت السببية هي المحرك الأقوى للسردية[٣٨]، وبالنظر الى السرد الصوفي نجد كثيرا منه لا يولي اهتماما لها ، وإذا وظفها كانت واهية مهلهلة ، مثلا عن بعضهم (قال : كنت بالمدينة فجئت عند القبر الشريف ، فإذا برجل أعجمي كبير الهامة يودع النبي، فتبعته لما خرج ، فلما بلغ مسجد ذي الحليفة صلّى ولبّى ، فصليت ولبيت ، وخرجت خلفه ، فالتفت فرآني وقال : ما تريد ، فقلت : أريد أن أتبعك فأبى ، فألححت عليه ، فقال : إن كان ولابد فلا تضع قدمك إلّا على إثر قدمي ..) [٣٩] .

إن الحكاية أعلاه لا تربط أفعال الشخصيات فيها سببية واضحة ، بل تحكمها الصدفة والاعتباطية ، فتبعدها عن الواقع وتغرقها في قسرية الفكرة الصوفية ،إذ لا سبب يقنع المتلقي بما تفعله الشخصية الساردة من تتبع لـ(الرجل الاعجمي)، وليست هناك أي مثيرات تمد جسرا معلِّلا للعلاقة بين شخصيات الحكاية ، فمن غير المقنع أن يسوّغ التتبع بالصفة الأعجمية أو كبر الهامة ، لذا نرى السببية غير منطقية أو ملغاة بالأصل .

وقد يكون اختيار العامل السببي لا يلائم الأحداث، بل هو بعيد عنها ،لكن منشئ السرد أتى به توهما منه وجهلا بعلاقته بالمتن ، مثلا قال أبو العباس بن عمر المرسي : (لمّا قدمنا من المغرب الى الإسكندرية ، نزلنا عند عمود السواري من ظاهرها ، وكان وصولنا عند اصفرار الشمس ، وكانت بنا فاقة وجوع شديد ، فبعث لنا رجل من عدول الإسكندرية طعاما ،فلما قيل للشيخ عنه ، قال : لا يأكل أحد منه شيئا ، فبتنا على ما نحن عليه من الجوع ، فلما كان عند الصبح صلّى بنا الشيخ ، وقال مدّوا السّماط واحضروا ذلك الطعام ، ففعلنا وتقدمنا فأكلنا ، فقال الشيخ :رأيت في المنام قائلا يقول لي : أحلّ الحلال ما لم يخطر على بال ، ولا سألت فيه أحدا من النساء والرجال)[٤٠].

إن الرؤيا المذكورة في الخبر لم تسوّغ الامتناع عن الأكل، كونها أشارت الى ما هو متحقق قبل حدث المنع ،فهناك طعام موهوب من رجل من دون أن يُسأل ، وكان شرط الحلية في الرؤيا متعلقا بفعل غير متوقع (عدم الخطور على البال) ، وغير محفّز أو مهيأ (عدم السؤال) ، لذا اضطربت السببية لوهن روابط النص ، ولو صرّح السارد بعد المنع بانتظار رؤيا ،لكان أبعد عن التصديق ، ما دامت الرؤيا فعلا غير إرادي ، بل هي وسائط إلهية بحسب رأي الصوفية .

وإذا كانت السببية تعمل على ربط الوحدات النصية وصولا الى البنية الشاملة ، فهذا يعني وجوب أن يكون هناك ترابط بين بنية السرد من بداية ووسط ونهاية ، وأي خلل في ذلك الترابط سيؤدي الى الاخلال بالسرد وإضعاف السردية[٤١] ،والإضرار بتماسك النص وتشتيت المعنى .

على سبيل المثال يروي نجم الدين الاصبهاني قال : قال لي شيخ صحبته وأنا ببلاد العجم إنك ستلتقي القطب بديار مصر ، فخرجت ، وبينما أنا في الطريق ، وإذا مجموعة من التتار تأسرني وتختلف في قتلي ، فعملت أبياتا شعرية وأنشدتها ، فلما أتممتها وإذا برجل ظاهر الهيبة فك وثاقي ، ولما وصلت الى مصر ذهبت الى أبي العباس المرسي ، فإذا هو نفسه الرجل الذي فك وثاقي وقال : أعجبني نظمك حين أُسرت[٤٢] .

لقد أغفلت الحكاية حدثا مركزيا فاعله (التتار) ، إذ لم تشر الى مصير تلك الجماعة ، على الرغم من أنها تورطت بذلك الفعل الجوهري مع الشخصية الرئيسة ، لذا ضعف الترابط الذي تقوم عليه البنية الكلية للحكاية ، وأثار هذا الضعف ثلما في تلقي النص السردي وأسئلة يبحث المتلقي عن الإجابة عنها ،ليسد تلك الثغرة التي سكت عنها السارد ،أو أغفلها لقلة اهميتها عنده .

٦- اختلاف المروي

تنطلق هذه النقطة من فكرة تتبع النص السردي لدى مؤلفين مختلفين، والوقوف الشامل على أيهما أكثر انصياعا ومطابقة لقوانين السرد ، التي منها وجوب (أن يكون المقطع المكرس للمروي بصورة رئيسة والذي يقدم الكثير من السلاسل الزمنية ، أكثر سردية نسبيا من مقطع يقدّم القليل منها ،لأن السرد يروي الأحداث التي تظهر في أوقات مختلفة ، بدلا من الأحداث التي تظهر في الوقت نفسه) [٤٣].

لذا سنرصد هذه الجنبة التي يتصف بها السرد بالنظر الى النص نفسه في أكثر من مورد ، أي رصد الشكل السردي واختلاف تقنية المروي التي يقف وراءها السارد أو المؤلف ، ويبدو أن الوقوف على النص في موضع واحد ، يثير إشكال كون المبدع له الحرية في أي صورة يخرج المتن، وأي طريقة يورده بها ، مع الأخذ بالحسبان أن من مظاهر ضعف السردية ما يكون قارا في النص الواحد لا يحتاج الى موازنة .

أما إذا تتبعنا النص نفسه أو الحادثة نفسها لدى مؤلفين ، فسنقف على الخصائص السردية المختلفة بينهما، وأيهما أبدع توظيفا وأكثر انتظاما لقواعد السرد ،لذا سأذكر حادثة وردت في الرسالة القشيرية وروض الرياحين، إذ ذكر القشيري في ترجمة بشر بن الحارث الحافي قوله : (وكان سبب توبته، أنه أصاب في الطريق كاغدة مكتوبا فيها اسم الله عز وجل ، قد وطئتها الأقدام ، فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية ،فطيّب بها الكاغدة، وجعلها في شق الحائط ، فرأى فيما يرى النائم كأن قائلا يقول له :يا بشر طيّبت اسمي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة) [٤٤] .

وذكر صاحب الروض في الحكاية الثالثة والثلاثين بعد المئتين قوله : (حُكي عن بشر بن الحارث رضي الله تعالى عنه أنه سُئل : ما كان بدء أمرك ، لأن اسمك بين الناس كأنه اسم نبي ، قال : هذا من فضل الله تعالى ، كنت رجلا عيّارا صاحب عصبية ، فوجدت يوما قرطاسا في الطريق فرفعته ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فمسحته وجعلته في جيبي ، وكان عندي درهمان لا أملك غيرهما ،فذهبت الى العطار،

فاشتريت بهما غالية ، وطيبت بها القرطاس ، فنمت تلك الليلة ، فرأيت في المنام كأن قائلا يقول : يا بشر طيبت اسمي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة ،رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين) [٤٥] .

يمكن النظر الى السرد الوارد في نص الرسالة القشيرية ،بأنه أكثر سردية من ما ورد في الروض ، لذاك الترابط الزمني الذي يحظى به المروي ، أي أن هناك تواتر للأحداث (المختلفة زمنا) من دون أن تنفصل بسبب من الوصف أو غيره.

ابتدأ السرد في الروض بحافز يمكن التخلي عنه ، إذ لا يؤثر حذفه على البنية الوظيفية ، أو على ما يلي من الأحداث ،فهو كتوطئة للدخول في السرد ، هذا الحافز في قوله (سئل ما كان بدء... فضل الله تعالى)، والبين أنه تحفيز بالطلب ، في حين أن المقطع السردي في الرسالة ابتدأ بتدخل السارد المحيل والمسبب لعملية السرد ، وهو أيضا إيذانا وإشعارا بأن السرد سيبدأ ، لكنه قصير مقارنة بما ورد من بداية في الروض ،أما قوله : (كنت رجلا عيارا صاحب عصبية) فيقع ضمن حقل الوصف المتعلق بتقديم الشخصية ،الذي يعمل على قطع سلسلة الأحداث .

إن الأحداث عند اليافعي تبدأ من (وجدت قرطاسا) وعند القشيري تبدأ بـ (أصاب في الطريق كاغدة) ،والمساحة اللغوية – إن صح التعبير – السابقة للحدث متفاوتة وهي لصالح سردية القشيري ، كما يورد سارد الروض (بشر) قوله : (كان عندي درهمان ما كنت أملك غيرهما) وهو أيضا وصف يتخلل توالي الأحداث ، في حين يورد السارد العليم هذا المعنى بوصفه حدثا لا وصفا في الرسالة ،بقوله : (اشترى بدرهم غالية) .

يلحظ أيضا أن المؤلف في الروض تدخّل تدخّلا فائضا غير سردي في ما أرفقه من دعاء في نهاية الحكاية، وهكذا من التحليل أعلاه يتبين مدى اختلاف نسبة الأحداث وتواترها الزمني بين طريقتين استعان كل سارد بواحدة منها .

أيضا هناك قضية تخص المروي تتعلق بقيمة الصيغة التي ينتج عن طريقها ، أي ما يعرف بالتضمير ، فالسرد لا بد أن يكون أحد هذه الصيغ (انا ، انت ، هو)، ولكل طريقة خصوصية ووجهات نظر أدلى بها النقاد عنها، وسنستشهد بواحدة منها تتعلق بالسّلم السردي في حكاية من مصدرين أيضا ، إذ يورد السهروردي المتوفى ٦٣٢هـ عن عبد الله الخوّاص أنه قال : (دخلت مع أبي عبد الرحمن حاتم الأصم الريَّ ، ومعه ثلاث مائة وعشرون رجلا يريدون الحج ، وعليهم الصوف والزرمانقات ، ليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا الري على رجل من التجار ..) [٤٦] .

فيما بدأ اليافعي المتوفى ٧٦٨هـ بقوله :(روينا عن الشيخ العارف الجليل المعظم أبي عبد الرحمن حاتم الأصم رضي الله عنه ، أنه دخل الري ومعه ثلاث مائة وعشرون رجلا ، يريدون الحج ، وعليهم جباب الصوف، وليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلوا على رجل من التجار ..) [٤٧] .

إن راوي السهروردي هو (الخوّاص) ، وهو راو مشارك له حدود معرفية ، كونه ليس بطلا للحكاية ،لاسيما في المقطع المذكور أعلاه ، أما في حكاية اليافعي ، فعلى الرغم من أن المؤلف صرّح بأنه يروي عن (الأصم)، لكنه في الحقيقة لا يمنحه وظيفة السرد بل يمنحها لنفسه ، كون الأصم بطل الحكاية الصوفي الذي يُروى عنه لا يروي هو .

لقد جعل اليافعي السرد يمر من تحت عباءته ، كما صيّر نفسه ساردا كلي المعرفة وغير مشارك في الأحداث ، بل يرصدها من نقطة عليا ، فكان صوته واضحا في صيغة الحدث البادئ بـ (دخل ، دخلوا) ، أما الصياغة في (دخلتُ ، دخلنا) فتحيل الى صوت السارد المشارك بشكل بيّن .

تبدو صيغة الروي عند اليافعي أكثر سردية منها عند السهروردي، ما دام راوي اليافعي يستعمل ضمير الغائب ، وراوي السهروردي ضمير المتكلم ، إذ عدّ بارت ضمير المتكلم أقل سردية من الغائب[٤٨]، لذاك القصور المعرفي الذي يكتنفه ويحدد حركته ، لذا نجد السارد (الخواص) فيما بعد المقطع المذكور، يلجأ الى صفة السارد كلي العلم ،ويطلع على أفكار الشخصيات ،لتحقيق أهداف ينشدها المتصوف .

الخاتمة:

– يظهر الزمن لاسيما الاصطلاحي منه في غالبية السرد الصوفي غير فاعل ولا مؤسس لحدث يرتبط به ارتباطا وثيقا ، بل منه ما هو فرض ، وتوظيفه بشكل غير محدد دال على الإغراق في اللامحدودية ، أي أنه متحرر من الحدث وغير ملتزم بالترهين، ويصلح لكل حادثة ، فضلا عن لجوء السارد الى حذفه وتغييبه ، وذا يعني لا سرديته ، وما المكان في بعض المواضع التي ورد فيها بأحسن حالا من الزمن ، فقد جاء غير واضح المعالم، إذا ما كان مجهولا فاقدا لعنصر احتضان الحدث ، فضلا عن إحاطته بالصدفة وعدم التوقع .

– استعمل السارد ضمير المتكلم ، لكنه لا يفصح عن نفسه ،على الرغم من أن ذلك يعارض المبدأ الذي أنشأ على إثره المتصوفة سردَهم ودعواهم بمرجعيته ، وهذا يعني عدم صلاح التقنية لمثل هذا المقام السردي ، فضلا عن ذلك نجد تدخلات للسارد في مواضع تقتضي عدم تدخله ،ما دام صوت الشخصية هو المناسب للسياق ، وليس هناك من داع للنيابة عنه ، نيابة تخلق اضطرابا وتزاحما غير سردي .

– يتدخل المؤلف في مجريات السرد ، ويحاول خلق حلقة تواصل مع المتلقي ، لكن ذلك يقع في نطاق الحيز اللاسردي ، كونه فائضا عن عالم السرد ، حتى لو كان هدفه سد ثغرة أو إبانة عن معنى .

– تعمل بعض المظاهر الشفاهية على إضعاف السرد ، لا سيما حين يصدر قول واحد عن الشخصية ، لكن السارد أو المؤلف يورد معه غيره ،أي أن هناك قولا فائضا ناتجا عن تدخل الرواة واختلافهم ، وهو بطبيعة الحال زيادة غير مبررة ولا سردية .

– يلحظ في الحكي الصوفي وجود علامات تدل على وجود سرد غائب تحتاجه الحبكة ، وتنتفع منه التحولات السردية المفضية الى تحقيق حالة توازن ، فضلا عن وجود أحداث عيّبها السارد قسرا ، وأعاض عنها بألفاظ معروفة ، ثم عزز ذلك التغييب بسببية معدومة وضعيفة تخفض من سردية النص ، في حين أن النكتتين الأوليتين تقعان ضمن حدود مصطلح اللاسرد .

– تكشف موازنة المروي المتكرر لدى مؤلَّفَين طرق استثمار عناصر السرد ، وأيهما أكثر سردية وأبدع توظيفا وأكثر انطباقا وموافقة لقواعد السرد ، فضلا عن أيهما استعمل مظاهر اللاسرد .

– كل نقاط البحث يمكن عدها مظاهر لا سردية ، إذ إنها تخالف ما سارت عليه الكتابة السردية ، وعدته قاعدة موسومة بالثبات والقبول ، وما سميناه بـ(أقل سردية) إلّا جوازات لتلك القاعدة ، تتضمن مخالفة من نوع ما لها .

هوامش البحث:

(١) علم السرد مدخل الى نظرية السرد:١٢.

(٢) ينظر :علم السرد الشكل والوظيفة في السرد :٧.

(٣) المصطلح السردي:٢٧.

(٤) ينظر :توجهات ما بعد الحداثة :٤٨.

(٥) ينظر :علم السرد الشكل والوظيفة في السرد :١٩٩.

(٦) ينظر :علم السرد الشكل والوظيفة في السرد :١٩٧–١٩٨.

(٧) ينظر :القص ونثار اللاسرد: (WWW.ALNAKED–ALIRAQI.NET اسماعيل ابراهيم عبد.

(٨) علم السرد الشكل والوظيفة في السرد :٢١٨.

(٩) ينظر :علم السرد الشكل والوظيفة في السرد :٢٠٢–٢٠٣.

(١٠) جامع كرامات الاولياء :٨٢/١.

(١١) نفسه:٤/٢.

(١٢) لطائف المنن:٨٠.

(١٣) روض الرياحين في حكايات الصالحين :٥٤.

(١٤) قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية :٤٢١ .

(١٥) روض الرياحين :٧٣، وانظر : الرسالة القشيرية :٤٠٢ .

(١٦) ينظر : جامع كرامات الاولياء :١٩٧/١-١٩٨.

(١٧) روض الرياحين :٧٦.

(١٨) عوارف المعارف :١٦٦.

(١٩) روض الرياحين :٣١٦.

(٢٠) جامع كرامات الاولياء :٤٧/١.

(٢١) ينظر : نفسه :٥٢/١.

(٢٢) نفسه :٢٠١/١.

(٢٣) ايش : لفظة عامية تعني (ايّ شيء ؟).

(٢٤) ينظر :الرسالة القشيرية :٢٤٠.

(٢٥) ينظر :علم السرد مدخل الى نظرية السرد :٥٩.

(٢٦) روض الرياحين :١٠٥.

(٢٧) نفسه :١٠٦. وانظر الصفحات :٩٣-٩٤ .

(٢٨) عوارف المعارف :١٧٣-١٧٤ ، وانظر : الرسالة القشيرية : ٤٢٢ ، ٤٨٤ .

(٢٩) روض الرياحين :٤٧.

(٣٠) روض الرياحين :٢٤.

(٣١) نفسه :٦٣.

(٣٢) عوارف المعارف :١٧٤.

(٣٣) التعرف لمذهب اهل التصوف :١٦٩-١٧٠ ، وانظر : جامع كرامات الاولياء :٢١٢/١ .

(٣٤) ينظر :علم السرد الشكل والوظيفة في السرد :٧.

(٣٥) ينظر : الرسالة القشيرية :٤١٩.

(٣٦) لطائف المنن :٧٧.

(٣٧) ينظر :علم السرد الشكل والوظيفة في السرد :٢٠٩.

(٣٨) ينظر : المصطلح السردي:٤١.

(٣٩) روض الرياحين :١٢١.

(٤٠) لطائف المنن :٨٠.

(٤١) ينظر :علم السرد الشكل والوظيفة في السرد:٤٠.

(٤٢) ينظر :لطائف المنن :٩٤.

(٤٣) علم السرد الشكل والوظيفة في السرد :١٩٨-١٩٩.

(٤٤) الرسالة القشيرية :٥٤.

(٤٥) روض الرياحين :٢١٧.

(٤٦) عوارف المعارف :٤٥.

(٤٧) روض الرياحين :٣٠.

(٤٨) ينظر :درجة الصفر للكتابة :٥٢.

المصادر والمراجع

- التعرف لمذهب أهل التصوف : محمد بن اسحاق الكلاباذي ت ٣٨٠ هـ ، ضبط وتعليق : احمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ،ط١ ،١٩٩٣ .
- توجهات ما بعد الحداثة : نيكولاس رزبرج ، تر :ناجي رشوان ،المشروع القومي للترجمة ، نشر المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ،ط١ ، ٢٠٠٢ .
- جامع كرامات الاولياء : يوسف بن اسماعيل النبهاني ، تح : ابراهيم عطوة عوض ،المكتبة الثقافية ، بيروت – لبنان، د.ط ، ١٩٩١ .
- درجة الصفر للكتابة : رولان بارت ، تر : محمد برادة ، دار الطليعة بيروت ، الشركة المغربية للناشرين ، ط١ ، ١٩٨١.
- الرسالة القشيرية : للإمام ابي القاسم القشيري ت٤٦٥ هـ، تح :عبد الحليم محمود ومحمود الشريف ،دار الشعب ، القاهرة، د.ط ،١٩٨٩ .
- روض الرياحين في حكايات الصالحين : عفيف الدين ابي السعادات عبد الله بن اسعد اليافعي ت ٧٦٨هـ ، وضع حواشيه عبد الجليل عبد السلام ، دار الكتب العلمية ' بيروت – لبنان ،ط ٤ ،٢٠١٧ .
- علم السرد الشكل والوظيفة في السرد : جيرالد برنس ، تر : باسم صالح ،دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠١٢ .
- علم السرد مدخل الى نظرية السرد: يان مانفريد، تر: أماني أبو رحمة، دار نينوى، دمشق– سوريا، ط١ ،٢٠١١م.
- عوارف المعارف : للسهروردي ت ٦٣٢هـ ، تح :احمد عبد الرحيم السايح ،مكتبة الهداية ، د.ط ، د. ت .
- قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية : سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٩٧ .
- القص ونثار اللاسرد : اسماعيل ابراهيم عبد www.alnaked-aliraqi.net
- لطائف المنن : للعارف بالله ابن عطاء الله السكندري ، تح :عبد الحليم محمود ، دار المعارف ، مصر ،ط٣ ،٢٠٠٦ .
- المصطلح السردي : جيرالد برنس ، تر : عابد خزندار ،المشروع القومي للترجمة ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ط١ ،٢٠٠٣ .